القاتل الذي دافعت عنه شقيقة القتيل !!

محاكمة « الدكتور جورج لامسون »

... كانت هذه القضية ـ ولا تزال ـ غامضة . . سواء من جهة الدوافع التي قيل أن المتهم اقترف جريمته من أجلها . . أو الوسيلة التي نفذت بواسطتها . . ولقد ظلت زوجة المتهم ـ وشقيقة القتيل ـ تقف الى جانب زوجها مدافعة عن براءته من دم شقيقها . . حتى بعد اعدام المتهم بسنوات .

ولو كان الحكم الذي صدر على « الدكتور لامسون » على حق لاعتبر هذا الشخص صاحب أكبر مهنة انسانية . . مجرماً من الطراز الأول احكاما وتدبيراً لجريمته . . ولكن هل كان الحكم على حق ؟ !

إن قضية الدكتور « لامسون » الذى لقى حتفه شنقاً فى سجن « واندسورث » بلندن . . مداناً بقتل شقيق زوجته الفتى الكسيح « برسى جون » لتعد من القضايا التى لا يزال يذكرها الشعب الإنجليزى — والأمريكى أيضا — ولعله سوف يمضى وقت طويل قبل أن تنمحى تفاصيل محاكمة هذا الدكتور من ذاكرة الشعبين ! وليس الأمر براجع فقط إلى أن هذه القضية كانت أولى القضايا الكبيرة التى توسع القضاء فى أثناء نظرها فى مسائل طبية فنية . . بل لأنها كانت ذات صفة خاصة نظراً لغموض الدوافع التى نسبت إلى المتهم ، والتى أدت — كما قيل — به إلى القتل . . وكذلك لغموض الوسائل التى قيل أن المتهم اقترف الجريمة بواسطتها . . بل أنه كان هناك أكثر من ذلك . . فقد ظلت زوجة هذا المتهم — وشقيقة القتيل — تقف إلى جانب زوجها مدافعة عن براءته من دم شقيقها براءة تامة . . حتى بعد أن هوى جسده على المشنقة بسنوات ! .

ولو كان الحكم الذى صدر على الدكتور « لامسون » بالإعدام على حق ، لأمكننا أن نعتبر هذا الرجل المثقف ، وصاحب أكبر مهنة إنسانية ، مجرماً من الطراز الأول إحكاماً وتدبيراً لجريمته . . ولكن : هل كان الحكم على حق ؟ !

وهنا . . وبعد أن نستعرض وقائع هذه القضية ، وما دار حولها

من أقاويل يحق للمرء — بالرغم من صدور حكم القضاء العالى الانجليزى مديناً للمتهم فيها — أن يتساءل :

— هل قتل الدكتور « لامسون » حقيقة شقيق زوجته بواسطة دس السم له ؟

— فإذا كان الأمر كذلك فهل كان يبغى قتله ... أم كان يريد أمراً آخراً أصلا ؟

— وما هى الكيفية التى دس بها السم لضحيته ؟ !

ولقد كانت مهمة الاتهام فى أول الأمر ميسرة بعض الشىء . . لأن الدافع إلى الجريمة كان يبدو عندئذ واضحاً ظاهراً لا غبار على التفكير فى إمكان حدوث الجريمة نتيجة له . . هذا إلى أن أقاويل عديدة قيلت فى شأن سيرة المتهم مما ساعد على إبعاد عطف المحلفين عليه . . وبالرغم من أن المحاكمة استمرت ستة أيام فإن هؤلاء المحلفين لم يختلوا فى حجرتهم أكثر من نصف ساعة عادوا بعدها إلى أماكنهم ليعلنوا أنهم يرون المتهم « مذنباً » ، غير مكترثين بما دار فى هذه الأيام الستة من محاورات ومداورات فقهية وطبية . . ولا ملقين بالا إلى المهارة الفائقة التى أبداها الدفاع ممثلا فى شخص المستر « مونتاج ويليامز » المحامى العبقرى الكبير . . أو الأسلوب الرفيع الذى صاغ فيه مرافعته عن المتهم . . ولكى ندرك إلى أى حد كان أمر هذه القضية يقلق

باله نذكر أنه أشار فى إسهاب إليها عندما وضع كتابه « أوراق متناثرة من الحياة » إذ قال انها كانت أصعب وأدق قضية باشرها فى أثناء حياته العملية الطويلة المليئة بالتجارب ! .

والآن فلنستعرض الوقائع . .

فى عام ١٨٨١ كان يعيش فى القسم الداخلى بمدرسة « بلنهيم » فى « ويمبلدن » بضواحى لندن ، فتى كسيح فى الثامنة عشرة من عمره يدعى « برسى جون » هو أحد أفراد عائلته التى أضحت بعد وفاة الوالدين تتألف من بنتين وشابين عداة . . يعيشون جميعاً على الدخل اليسير الذى خلفه الوالدان لهم .

وكانت إحدى البنتين قد تزوجت فى عام ١٨٧٨ بطبيب يدعى « جورج هنرى لامسون » فاستطاعت بذلك أن تستولى على نصيبها فى تركة والديها ، ولم تلبث أن سلمته إلى زوجها الطبيب . . كذلك فعلت شقيقتها ، فقد تزوجت من موظف يدعى « وليام تشابمان » قبل زواج أختها بعام . . وبعد سنة من زواج « لامسون » مات الأخ الأكبر لزوجته فجأة ، فأفاد ذلك الطبيب الذى تمكن على الأثر — وبواسطة المال الذى آل إلى زوجته نتيجة لهذه الوفاة — من شراء عيادة طبية فى « بورنموث » ولكنه ما لبث أن باعها إذ لم يجن من ورائها ربحاً . .

رحل الدكتور « لامسون » بعد ذلك إلى أمريكا لغير ما سبب

واضح ، وبعد عودته أكره على رهن بعض ممتلكاته الخاصة المحدودة ، وأخذ يتبع طرقاً عديدة ملتوية للحصول على المال . .

وفى معمعان اضطرابه المالى هذا ، كتب الدكتور « لامسون » إلى شقيق زوجته « برسى جون » خطاباً يفيض بالعطف والحنان ، منبئاً إياه بأنه سيزوره بمدرسته فى اليوم التالى (٢ ديسمبر . .) وهو فى طريقه إلى باريس ! وفى هذا اليوم قصد إلى ويمبلدون وبصحبته من يدعى « تالوك » — وهو طالب طب تعرف به الدكتور أخيراً — وعند ما وصلا معاً إلى محطة « ويمبلدون » ترك الدكتور زميله بها وذهب إلى حيث يزور شقيق زوجته فى مدرسته ، وما لبث أن عاد بعد عشرين دقيقة . . وأخبر مرافقه من تلقاء نفسه بأن شقيق زوجته هذا فى حالة خطرة ، وأن آلامه فى السلسلة الفقرية مبرحة وتنذر بنهاية عاجلة غير حميدة . . كما قرر له كذلك بأن المستر « بديروك » — ناظر المدرسة — طلب منه التريث فى السفر إلى باريس لأنه — أى الناظر — كان يعمل من قبل فى شركة سكة حديد جنوب شرقى انجلترا ، ويعلم أن الباخرة المسافرة عبر المانش إلى باريس ليست من النوع الذى يمكن أن يطمئن إليه المسافر فى مثل هذا الجو المضطرب فى ديسمبر .

ولقد تبين فيما بعد أن كل ذلك كان محض اختلاق من جانب الدكتور « لامسون » . . إذ ثبت أنه لم يذهب إلى المدرسة فى ذلك

اليوم قط . . وبالتالى فإنه لم يقابل ناظرها المستر « بديروك » ، كما أن هـذا الأخير لم يكن فى يوم من الأيام من موظفى شركة سكة حديد جنوب شرق انجلترا ، أو على علم بحالة البواخر المسافرة عبر المانش .

فما الذى حدا بالدكتور « لامسون » إلى حياكة كل هذه الأكاذيب ؟ !

وفى اليوم التـالى (٣ ديسمبر . .) كانت مدرسة بلنهيم مسرحاً لمأساة غريبة ! !

فلقد كان « برسى جون » يعيش فى هذه المدرسة فى هدوء . . وبالرغم من مرضه المزمن الذى أدى إلى كساحه على أثر إصابتـه بشلل فى قدميـه ، فإنه كان يمضى وقتـاً طيبـاً بين زملائه وأقرانه الذين كانوا يداومون على رعايته والعناية بأمره . . ولقد أعد له كرسيان — من النوع الذى يستعمله المصابون بمثل مرضه — أحدهما فى الطابق العلوى من المدرسة ، والثانى فى فنائها — وكان زملاؤه يتبارون فى خدمته ، وحمله صعوداً ونزولا حتى لا يشعر بوحدته وبعجزه . . وهكـذا كان يشاركهم دائماً ألعابهم ومسراتهم .

وفى اليوم الثالث من ديسمبر حمل « برسى » إلى الفناء كالعادة وهو مشرق الوجه وفى صحة تامة . . وبعد ما تناول الشاى وصلته رقعة تفيد أن الدكتور « لامسون » — زوج شقيقته — قد خف إلى زيارته ، فحمله أحد زملائه إلى الطابق العلوى حيث حجرة ناظر المدرسة المستر « بديروك » . . وهناك تركه يحيى الناظر والضيف .

ولقد تملكت ناظر المدرسة الدهشة من الدكتور الضيف الذى أخذ يحنو فى عطف ظاهر على قريبه الكسيح . . ويمتدح ما يراه من تقدم فى صحته . . ذلك لأنه اعتاد أن يسمع منه دائماً أن هذا الكسيح لن يعيش طويلا !

ولما كان الناظر يعلم بأن ضيفه يحب شراب « الشيرى » فقد صب له كأساً منه فتقبله الدكتور شاكراً . . وطلب قليلا من السكر ليضيفه إلى الشراب زاعماً أنه بذلك يكسر من حدة الكحول ، فأمر الناظر باستحضار بعض السكر بالرغم من معارضته للدكتور فى رأيه الذى أبداه . .

وعندما وجد الدكتور السكر أمامه وضع قليلا منه فى كأسه وأدار الشراب بما فيه من سكر بمبراة كان يحملها ليساعد على ذوبانه . . وبعد هنيهة فتح حقيبة صغيرة كانت معه وأخرج منها قطعة من الكعك كبيرة « تارت » وما لبث أن انهمك فى تقطيعها إلى شرائح صغيرة بالمبراة . . وكان يبدو أن هذه القطعة قد جهزت من قبل وأنها لم تكن كاملة تامة ، بل أنه أكل جانباً منها من قبل . .

ومهما يكن من أمر فقد ناول الدكتور قريبه الكسيح شريحة ، وقدم أخرى إلى الناظر . . والتهم هو ثالثة . . ثم وزع عليهما بعد ذلك بعض الحلوى . . فأكل الجميع هنيئا !

وفى هذه الأثناء صاح الدكتور كمن نسى شيئاً هاما . . وقال للناظر :

ـ يا مستر بديروك . . إننى لم أنسك ولم أنس تلاميذك عندما كنت فى أمريكا أخيراً . . فقد استحضرت بعضاً من « البرشامات » الفارغة معى من هناك لأريك إياها ، إذ هى خير وسيلة لإغراء الأحداث على تناول الأدوية ، مريرة المذاق ، دون تقزز أو تضرر . .

وأردف ذلك بأن أخرج من حقيبته صندوقين بهما « برشامات » . . وناول واحدة منها للناظر ، الذى كان يقف إلى جواره ، فابتلعها فى الحال مبدياً إعجابه . . ثم تناول هو واحدة أخرى وفتحها وبعد أن ملأها ببعض السكر ـ أمام الناظر ـ قدمها إلى شقيق زوجته وطلب منه أن يبتلعها ، كما فعل الناظر بأختها ، حتى يتبين مدى نجاح استعمال هذه البرشامات . . ففعل فى الحال . .

وعلى الأثر استأذن الضيف فى الانصراف زعماً أن الوقت قد أزف ليستقل القطار الذاهب إلى لندن ، فرافقه الناظر حتى الباب ، وهناك أخذ يردد ما كان يردده دائماً من قبل من أن قريبه « برسى » لا يزال فى حالة خطيرة ، وأنه لن يعمر طويلا ! .

وعندما استقل الدكتور « لامسون » القطار بدأ « برسى » يشكو خفقاناً وحرقاناً فى قلبه . . وقال بأنه يشعر بوطأة المرض المفاجىء . . كما ذكر بأن هذه الحالة ذكرته بحالة مشابهة انتابته فى أغسطس السابق عندما أعطاه قريبه الدكتور حبوباً طبية إذ كان يزوره فى « شانكلين » !

ولقد ساءت حالة الفتى بعد ذلك وحمل إلى فراشه حيث رقد عليه بملابسه لفرط أعيائه !

وكلما كان الوقت يتقدم كانت الحالة تزداد سوءاً .. فأخذ الفتى يتلوى من الألم ، وأصدقاؤه وزملاؤه ينظرون إليه دامعى الأعين .. وتصادف أن زار الناظر عندئذاك طبيبان ففحصاه وسرعان ما قررا فى حزم بأنه فى حالة خطيرة وأن لا أمل يرجى فى نجاته .. وكان كل ما أمكننا فعله هو إعطاؤه جرعة مخدرة لتخفيف آلامه وهو راحل إلى دار البقاء .. وأكدا بأن وفاته المرتقبة ترجع إلى سم زعاف دس له .. فاتجهت فى الحال الشبهة إلى قريبه الدكتور « لامسون » الذى كان فى ذلك الوقت يعبر المانش فى طريقه إلى القارة !

وعند ما حم القضاء بالفتى ، أبلغ الناظر الأمر إلى البوليس الذى أبرق فى الحال يطلب من الدكتور « لامسون » العودة فوراً .. فأجاب هذا الدعوة ولم يختف أو يتخلف عن الحضور لحظة واحدة .. بل عاد إلى لندن ليشهد نهاية المأساة ومعه زوجته التى لم تشك فى براءته أبداً .. وعندما ووجه بالتهمة المسندة إليه المدعمة بالقرائن .. أبدى دهشة بالغة .. واحتقاراً ظاهراً لرجال بوليس « سكوتلانديارد » الذين يكيلون التهم جزافاً لأول شك يتطرق إليهم أو يخطر فى أذهانهم !! ..

وفى مارس من العام التالى — ١٨٨٣ — بدأت محاكمة الدكتور

« جورج هنرى لامسون »

الدكتور لامسون فى « الأولد بيلى » فى وسط جو من الاهتمام البالغ والبلبلة الشديدة فى الأفكار . . إذ كان الجمهور شديد الالتفات إلى ما يجرى فى ساحة القضاء من مناقشات ومساجلات فقهية وطبية . . تثير التعليق عليها . . وذلك بعد ما أثبتت التقارير أن القتيل لقى حتفه على أثر تناول مادة سامة نادرة هى « الاكونتين » . . تستخرج من بعض الأعشاب البرية .

ولقد زادت حالة التوتر عندما أبرز الاتهام مستنداً هاماً فى القضية . . وهى ورقة بها وصف دقيق لهذا السم الزعاف وطريقة استخراجه كتبت بخط المتهم وعثر عليها بمكتبته . . كما توصل الاتهام إلى إثبات أن المتهم اشترى من قبل جانباً منها فى أغسطس ونوفمبر السابقين على الشهر الذى ارتكب فيه الحادث . . وكان هذا كل ما لدى النيابة من أدلة مادية !

ولقد أبرزت النيابة أيضاً أمام القضاء أن الدافع للدكتور على ارتكاب جريمته ، هو أن موت الفتى يحقق لشقيقته — زوجته — إرثاً يقدر بألف وخمسمائة من الجنيهات ! واستنتجت أن هذا الإرث سيصل مباشرة إلى الزوج . . فيخرجه ذلك المبلغ القليل نسبياً من ورطته المالية الكبيرة !

وتكلم المحامى « مونتاج ويليامز » لمدة ثلاثة أيام مدافعاً عن المتهم فى براعة ولباقة بين إعجاب الجماهير وحماستها لتخريجاته وتعليلاته المدهشة للحوادث . . وكان مما قاله : إن الدكتور لامسون عرف بين أصدقائه

وزملائه بإنسانيته التى لا حد لها ، وأنه قام فى مناسبات عديدة بجهود مشكورة لتخفيف آلام الآخرين ، وأن الفتى الراحل كان يحبه ويركن إليه ، فمن غير المعقول أن يقدم بعد ذلك على دس السم له . . ثم أن الدكتور المتهم لم يحاول الهرب أو الاختفاء وقد كان فى إمكانه ذلك ، إذ كان قد وصل إلى باريس بالفعل عندما استدعاه البوليس للعودة إلى لندن . . ولكنه ما ظن أن الاتهام سيوجه إليه لأنه ملأ « البرشامة » التى تناولها القتيل والتى قيل أن بها السم أمام ناظر المدرسة ومن نفس السكر الذى وضعه فى شراب « الشيرى » الذى تناوله . . هذا إلى أن ثلاثتهم اقتسموا الكعكة « التارت » الكبيرة وأكلوها معاً هى والحلوى الأخرى التى كان يحملها . . فكيف ينسب إليه بعد ذلك أنه دس السم فى طعام تناوله هو والناظر ولم ينل أحدهما منه شيئاً .

وفند المحامى سند النيابة ، فتحدى ساخراً جميع الأطباء أن ينكروا أنهم كلهم يحتفظون بأوصاف وطرق استعمال وأسرار تركيب المواد السامة المختلفة فى مكتباتهم ومعاملهم . . من الزرنيخ إلى الأكونتين ! ! وأما فيما يختص بما قيل من أنه الدافع للتهم على القتل ، فهو قول تافه . . فليست المئات القليلة المعدودة بالتى يمكن أن تدفع بطبيب إنسانى أن يلقى بماضيه ومستقبله فى الرغام ! !

ولكن الأسلوب العالى فى المرافعة ، والتحليل البديع لأركان الجريمة

وأدلتها وقرائنها كما أبرزتها النيابة وهدمها الدفاع . . كل ذلك لم يجد فتيلا أزاء إصرار المحلفين واقتناعهم بإدانة المتهم . . فوجد القاضى — السير هنرى هاوكنس — أن لا مفر من أن يلبس الطاقية السوداء وأن ينطق وهو يرتديها : بإعدام المتهم وفقاً لما جرت عليه التقاليد فى « الأولدبيلى » .

ثارت أمريكا عند ما علمت بالحكم ، فقد كان للدكتور « لامسون » أصدقاء عديدون هناك ، وما لبث أن بعث بعضهم بالتماسات لإعادة النظر فى هذا الحكم . . وقد قبلت السلطات الإنجليزية التماسين منها ، كان يشير أولهما إلى أن المتهم أصيب بالجنون فارتكب الحادث . . بينما كان الثانى يؤكد أن المتهم ارتكب الحادث تحت تأثير المخدرات التى اعتاد تعاطيها ! !

وقال النقاد فى انجلترا وأمريكا أنه ارتكب جريمته لفرط انسانية ظناً منه تحت تأثير المخدرات . . أنها بلسم الآلام لقريبه الكسيح المريض المعذب ! .

ومما يذكر أن التحليل الكيمائى أثبت أن كعكة « التارت » خالية من أى سم . . إلا أنه وجدت قشرة من « زبيبة » فى معدة القتيل ملوثة بمادة « الأكونتين » ، فهل شبع الدكتور هذه « الزبيبة » اللعينة بالمادة السامة ؟ ! وهل كان يعلم موضع هذه « الزبيبة » بالذات فجعلها من نصيب

الفتى البائس ؟ ! وهل كانت البرشامة خالية من السم حقيقة ؟ ! وإنما فعل الدكتور ما فعل بشأنها لكى يضلل المحققين والقضاة ، ويعطى فكرة واضحة عن حسن نيته .

إن هذه الأسئلة وأشباهها لمما قد يخطر على بال الفاحص المدقق . وهى أسئلة ما زالت الإجابة عليها تختلف من شخص لآخر . . وما زال علمها الصحيح عند علام الغيوب . .

ومهما يكن من أمر . . فقد رفض الالتماسان من وجهتهما الموضوعية ونفذ « ما روود » — عشماوى لندن — حكم الإعدام فى الدكتور لامسون فى ٢٨ من ابريل عام ١٨٨٢ .